

هدى عيد

دانا والشاهين و قصص اخرى



قصة دانا والشاهين

وقصص أخرى

مجموعة قصصية

- 1- دانا والشاهين
- 2- المفاجأة السعيدة
- 3- بائع الشاي
- 4- نحن أصحاب البيت
- 5- لن يضيع جميل أبداً

القراءة تمدُّ العقلَ بلوازمِ المعرفة، أمّا التّفكيرُ فيجعلنا نملكُ ما نقرأ...

الفيلسوف البريطانيّ جون لوك

(1704-1632)



1 - قصّة: دانا والشّاهين

تنويه: كانوا مجموعةً مؤتلفة من الأصدقاء ، جمعهم مرحلة الدّراسة الإعداديّة، وغدّت صداقتهم النّزهات الجميلة في أحضان الطّبيعة. قصّتنا هذه سردٌ لمغامرة من مغامراتهم. أمّا أفراد المجموعة فهم: دانا/لوكاس/ أمّا، وهم يافعون لآباء غربيين يقيمون في " الخليج" العربيّ، ويلتحق أبناؤهم بمدارسها. أصيلة/ وِجد/ وصفوان من أبناء البلاد.

وقفوا ذاهلين تماماً... لكنّ ذهولي تفوّق على ما هم فيه من حيرة وضياع.

كيف التقط الشاهينُ هاتفَ دانا بهذه السرعة البرقّية؟ وكيف تمكّن من التّحليق كشهابٍ خاطف التمتعِ أمام أعيننا لحظة، من ثمّ ارتفع وعلا ليبلغ في هُنيئات، عنان السماء؟

راحت دانا تصرخ بي بهستيريّة طالبة منّي، أن أوقفه. أصيلة حاولت اللحاق به، وهو ما يزال على علو متوسط؛ فعلتُ بشكل أثار إشفاقنا وضحكنا، فقد تنبّهنا إلى الفرق الهائل بين وتيرة سرعتيهما. وجدّ الدائمة الحيويّة خلعت حذاءها الرياضيّ، وعدت حاملة إياه تريد أن ترمي "شاهيني" به، عساها توقعه أرضًا. لم تفلح طبعًا. أمّا لوكاس فقد راح يهرول في كلّ اتجاه، وهو يصيح بعصبية:

- طار الآيفون، يا لك من غبية يا دانا، اختفى الآيفون؟ كيف سمحت له بسرقة منك بهذه السهولة، يا لك من مخلوقة ضعيفة وغافلة!

لم تجب دانا. كانت منشغلة بملاحقة صقري الشاهين ببصرها، وهي مبهورة بسرعته، وبالخفة الهائلة التي استلّ بها هاتفها من يدها، وقد راحت تردّد بين الحين والآخر، ويدها تتحرّكان في كلّ اتجاه:

- كيف فعل ذلك يا إلهي، لقد كان ينظر إليّ بحقد وبتصميم، رأيت ذلك في عينيه القاسيتين، أيعقل أنّه يفكّر ويشعر مثلنا نحن البشر؟

لم أعزها اهتماما كافيا، فقد كنت منشغلاً بمتابعة مسار صقري، وهو يتعالى بسرعة صاروخية جعلت رؤيته واضحًا أمرًا أقرب إلى الاستحالة. نعم،

لقد غدرَ بنا جميعًا، ولكني أتحمّل مسؤولية ذلك بلا شكّ، فأنا من تركه في قفصه بلا قناعه الصّغير، على الرّغم من تحذيرات والدي المتكرّرة حيال هذه المسألة، وعندما فتحت باب القفص فعلَ ما فعل، وأنا واقفٌ أمامه كالأبله العاجز.

- صفوان - قال لي أبي - هذا صقر ذكي وقادر، إياك أن تتعامل معه باستهانة، أو باسترخاء.

أبي كان محقًا في ملاحظته تلك، وقد ثبتت صحّتها في هذا اليوم بالذات؛ وهذا اليوم بالذات ليس توقيتًا مناسبًا لكي يغدر بي طائري الحبيب، فأنا قد دعوت أصدقائي هؤلاء إلى هذا المكان، وفي هذا التوقيت تحديدًا لأنّي أردت أن أتباهى بصقري الشاهينيّ أمامهم، ساعيا إلى استعراض مقدرتي على تدريبه وسوقه إلى فعل الأعاجيب. انقلب السّحر على السّاحر الأرعن الذي هو أنا.

- تستحق يا صفوان، - أنبث نفسي - لأنك لم تكن حذرًا بالشكل المطلوب، فهذه نهاية غير متوقّعة للبداية الموفّقة التي كانت لك، حين استقبلتهم صباحًا، على رمال هذه التّلة الجميلة.

بدوت يا صفوان منتشيًا صباحًا، وأنت ترى ما يحدثُ إليه أصدقاؤك بتهيب وإجلال. وأنت كنت سابقًا قد وقفت ووقفتم الذاهلة عينها، في المكان نفسه الذي وقفوا على رماله المنبسطة الذهبية، وقلوبهم تتلوا في هدأةِ الابتهالات.

- أليس رائعاً؟

سألتهم يا صفوان بحماسة وثقة، والابتسامة الجميلة تكتسح ملامح وجهك الفتى.

أجابت أصيلة:

- إنه أكثر من رائع، هذا مكان يفوق الخيال، أنا ابنة شبه الجزيرة هذه، ولم

تسبق لي رؤيته من قبل، كيف توصلت إلى اكتشافه صفوان؟!

- هي أحاديث جدّي أوس عنه، وأنا صغير، زرعت في داخلي فضولاً لم أنسه

ورغبة محمومة في اكتشافه، قادتني في نهاية الأمر إليه. مات جدّي الحبيب

قبل أن يصطحبني معه إلى ربوعه، لذلك أجريت أبحاثي الخاصة عنه. ومنذ

رأيت صورته عبر الأنترنت، وقرأت ما قرأت عنه، وأنا قد بتّ مشغولاً به، عاقد

العزيمة على زيارته. ونتيجة هذا الشغف أقنعت والدي بالسّماح لي باصطحاب

" صقري " الشّاهين إلى هذه التّلة، حتّى أتمكّن من حسن تدريبه في أنحائها،

على الصّيد وعلى حسن الطّيران.

اقترب كلّ الرّفاق في تلك اللّحظة، من القفص المتّسع الذي ضمّ بين

قضبانه صقر صديقهم صفوان، وراحوا يتأمّلون بإعجاب حقيقيّ عينيه

الحادّتين الثّاقبتين، رأسه الأسود اللّون، ريشه الرمادي المرقّط، ويتابعون

مسار النّقاط البيض التي انتشرت بكثافة في منطقة أسفل العنق، والتي زادت

من جماله وروعته.

سألتنى دانا صديقتي المفضلة، في خلال دراستي في المرحلة

الإعدادية، والتي تعشق كل أنواع الطيور، وتتابع أخبارها عن كثب:

- صفوان، منذ متى وأنت تقتنى هذا الطائر المهيب الذي تخبئه بعيداً عنا،

ولماذا لم تدعنا نراه قبل الآن، يا له من مخلوق بديع فعلاً، ما نوعه، وما

اسمه، وما...؟

قالت ذلك، واقتربت أكثر فأكثر من القفص الحديدي، وراحت تقرب جهاز

الآيفون بثبات من حديد القفص، في محاولة منها لاقتناص صور قريبة لهذا

المخلوق الجميل.

- اهدهني دانا، سأخبرك بكل التفاصيل. من ترينه في القفص واحد من صقور

الشاهين البحري، وهو الصقر الأكثر سرعة في العالم، يتفوق بطيرانه على

سرعة بعض الطائرات الحربية، ابتاعه لي والدي منذ ثلاثة أسابيع فقط، هدية

تلقيتها منه، من بعد تفوقي وتحقيقي الامتياز في ختام المرحلة الإعدادية،

وصدقيني هي أجمل هدية تلقتها منذ مولدي.

انتبهي دانا، ولا تحاولي الاقتراب منه أكثر، بل أبعدى "فلاش" هذا

الهاتف عنه أرجوك، كي لا يشعر بالقلق والتوتر من الأضواء الملمتعة أمامه،

فهو لا يأنس إلينا، نحن البشر، بسهولة.

استفهم رفيقنا لوكاس بحماسة وانفعال:

- وهل تمكنت من تدريبه على الصيد صفوان، يقال إن هذه مهمة معقدة للغاية، وتحتاج صبرا، لاسيما إذا كان صاحبه مبتدئا في عالم التدريب مثلك؟ قال عبارته وغمز الرفاق ضاحكا، فشاركوه ضحكه.
- هي مهمة جميلة، وليست معقدة يا صديقي المتذكري، بل هي تحتاج خبرة ودراية، وحسن تعامل مع هذا الطائر البهي.
- هل صار صقرك يجلس على يدك مثلا، أسمع أنّ هذا الفعل يمثل التحدي الحقيقي لأي مدرب متمرس؟
- ابتسمتُ بتباهٍ، من ثمّ قلت باعداد :
- سترون بعد قليل مقدار التّقدم الذي تمكّنت من تحقيقه، مع صديقي الجديد هذا.

راح الجميع ينظر بإعجاب حقيقيّ، إلى صقر الشاهين الذي كان يتوسّط القفص الفسيح الذي جُعل فيه، وقد بدت عيناه ناريتين، ينظر بتوثّب إلى من أحاطوا به، ويحدّق حيناً بحدّة إلى هاتف دانا الملتمع، إلا أنّه بدا مرتفع الرأس واثقا من نفسه، غير عابئ بما يدور حوله من أحاديث هؤلاء الرفاق الذين جمعتهم الحياة الدّراسيّة، واشتدّت أواصر الصّداقة المتينة فيما بينهم؛ تلك الصداقة التي جعلت منهم فريقا مميّزا في التّحصيل العلمي، وفي الرّقي المسلكي والأخلاقي.

كان صفوان مضيفهم الذي دعاهم إلى مشاركته فرحته بصقره الجديد،
وقد صار واثقًا بأنّ هذا الأخير لن يخيب ظنه أبدًا، فهو مطمئن إلى امتلاكه
مهارة عالية في الصيد، وفي مطاردة الفرائس. آه، لو يعلمون آية فرحة زغرت
في صدره، عندما اصطحبه والده إلى محلّ بيع الصّقور، طالبًا منه أن ينتقي
أحدها.

وقف حينذاك فرحًا، ممتلئًا دهشة وهيبةً أمام تلك المخلوقات الكثيرة
الأنيقة والقوية التي أحاطت به، وهي تربض في أقفاصها، وتفرد أجنحتها
الهائلة فتبدو كالموك ترفلّ في أثوابها الفضفاضة البرّاقة.

- اختر منها أي واحد يعجبك.

طلب مني والدي ذلك، وهو ينظر إليّ بحنان، وبحزم.

- ولكن بعضها مرتفع الثمن يا أبي، أنا أعرف ذلك جيّدًا، فقد سبق لجدّي رحمه
الله، أن أخبرني بمثل هذه التفاصيل، وأنا لا أريد أن أثقل عليك.

- هذا ليس شأنك، أنت عليك أن تختار فقط، واترك الباقي عليّ.

سرتُ ذاهلاً متأملاً كلّ تلك المخلوقات البديعة الصّنع، وأنا أجلّ في داخلي قدرة
الله الرّحمن الرّحيم الذي أحسن خلق هذه الطّيور، وتسويتها في أحسن تقويم.

رفعتُ عينيّ أكثر من مرّة إلى هذا الشّاهين البحريّ، وقد شعرت بقلبي يرتجف
بين أضلعي الطريّة. درتُ أكثر من مرّة في أنحاء المحلّ، إلّا أنّ قدميّ كانتا

تقودانني مجدداً إلى الشاهين. شعر والدي بميلي وانجذابي، فقال لي وهو ينظر
بدفء إلى عيني:

- لا داعي للحيرة، إذا كان هذا الشاهين قد أعجبك فاتكل على الله، وقل يا رحمن
يارحيم، هو خيار ممتاز. أحسنت يا بني.

أنا أحب والدي كثيراً، وأفخر بأبوتاه لي، لكنني في تلك اللحظة شعرت
بالإضافة إلى الحب، بامتنان عارم لوجوده في حياتي، ولتلفه الكبير معي،
ولشعوره حتى بالأمان التي تتوالد في داخلي.
عادت دانا تسأل بإلحاح:

- ماذا سأفعل صفوان أرجوك أخبرني، لقد أخذ صقرك هاتفي. هل تدرك أنّ
حياتي بأسرها موجودة في داخل ذلك الآيفون، أعني صوري، محادثاتي،
أصدقائي، "البوستات" التي أبتكرها، بل لقد حملته بعض ملفات الدراسة، يا
إلهي يا صفوان، لماذا لم تنبّهني إلى غدره وسرعه، لماذا تركتني عرضة
لسرقته المهينة هذه؟

- لقد نبهتكم دانا، وحذرتكم من الاقتراب كثيراً، ومن تصويره، لكنك لم تصغ في
لحظة إليّ، لذلك كفي عن لومي، لو سمحت.

اقترحتُ وجَد أن نمدّ بساطاً في ظلّ الخيمة التي ضربناها عند وصولنا.
لعلنا نجلس ونرتاح قليلاً من لسع حرارة الشمس التي باتت حارقة.

أذعنا إلى اقتراحها، وافترشنا، في ما يشبه الدائرة، البساط الملون الذي كان موضوعاً بعناية في حقيبة السيارة، لنستخدمه متى احتجنا، في مثل هذه النزهات البعيدة.

جلست أصيلة إلى جانب دانا، تخفّف عنها وطأة فقدانها هاتفها، وراح لوكاس يتحدث مع وجد عن عظمة هذا الطائر، وعن انبهاره الشديد به، حين فرد جناحيه العظيمين وراح يحلّق بأناة وثقة، إلى أن علا وغاب عن أبصارنا. أخبرها بأنه شاهد في يوم ما، حلقة تلفزيونيّة من حلقات "ناشيونال جيوغرافيك"، تحدّث في خلالها مقدّم البرنامج عن أعلى سرعة للشاهين، تبلغ خلال انقضاضه على فريسة ما، إذ يسجّل قياسها رقم 389 كم في الساعة الواحدة، مؤكّدا لها أنّه المخلوق الأسرع في مملكة الطيور والحيوانات. من ثمّ عقّب بمرح وسخرية:

- يعني ببساطة : طار هاتف دانا، ولا أمل في استعادته أبداً، العوض بسلامتك. ويبدو أن دانا كانت تصغي بجديّة تامّة إلى ما يقوله لوكاس، فإذا بصوتها يعلو مستنكراً وقد خالطه ما يشبه البكاء .

شعرت بإرباك حقيقيّ، وغضبت في سرّي من شاهين الذي أخرجني أمام أصدقائي، وحرمني من متعة التّباهي به وبقدراته، وبمهارتي في تدريبه على الطّيران والصّيد، كما حرم صديقتي من هاتفها.

بينما كنت أجلس مطرقاً أسير هواجسي، أرسم على الرمال صورة طائري
من دون وعي مني، وكان قد مضى على جلوسنا حوالي الساعة، ارتفع صوت
وجد تصرخ بفرح وغبطة، معلنةً بتوتر وبانفعال صادق:

- لقد عاد شاهين، لقد عاد صقرك يا صفوان، انظروا إليه ما أروع، وهو
يهبط بهذه السرعة، يا إلهي... يا...
...

كنا قد وجمنا جميعاً غير مصدقين، ونحن نراه يسقط باتجاهنا باسماً
جناحيه العظيمين بثبات وصلابة وحدة، وحين بات قريباً وموازيًا من علّ،
لرأس دانا، أسقط الهاتف باتجاهها، وقد كاد يصيبها به، لولا أن حرّكت رأسها
بفزع واضطراب، فسقط في حجرها، وتلقفته وهي تنظر ببلاهة، إلى كلّ ما جرى
أمامها.

فعل ما فعل من ثمّ، أكمل الشاهين مساره بهدوء، متّخذاً طريقه بعيداً عنّا
وجناحاه تتحرّكان بوقار وأناقة. واستمرّ يطير على علو منخفض إلى أن حاذى
قفصه، ووقف إلى جواره، إلا أنّه لم يدخل إليه، وإنما زرع قائمته القويتين
بثبات وبثقة مثيرة إلى جواره.

صُعقنا جميعاً ممّا جرى، وبقينا ننظر بخوف وبإعجاب حقيقي إليه.

صرخت دانا من بعد أن تفحصت هاتفها:

- إنه سليم، هاتفني لم يصب بأي أذى، شكراً، شكراً لك أيها الطائر الذكي العظيم.

شعرت بزهوٍ حقيقي لذكاء صديقي الجديد، ولعزة نفسه وكبريائه،
وأحسست بامتنان له، وقدّرت أنّه انزعج من دانا، حين كانت تصوّره، وتطلق
أضواء هاتفها أمام عينيه، فعاقبها على ذلك، إلاّ أنّه لم يؤذها فقد أدرك
بغريزته أنّي أحبها، وأنّها صديقةٌ عالية على قلبي.
اندفعت دانا تحتضن جميع الرفاق، وتحتضني شاكرة ممتنة. عانقتها
بسرعة، وعيناى منشغلتان بالنظر إلى صقري الذي وقف بشموخ وكبرياء أمام
قفصه، وهو يلتفت حيناً بتعالٍ إلينا، وحيناً آخر يطلق بصره بشموخ نحو
العلاء. ووجدتني أسبح في بحر من السعادة، وشعورٌ بالامتنان المضاعف قد
سكنَ صدري.

امتنان لجديّ الذي أيقظ وعيي على أهمّية هذا الطائر العظيم، لوالدي
الذي أهداني إياه بحبّ وباحترام لميلي حياله، وبتقّة بمقدرتي على حسن
التعامل معه، ووالامتنان الأكبر لشاهيني الجميل الذي لم يخيب فيه ظنّي ابداً.

2- قصة المفاجأة السعيدة



استيقظت لارا بنشاط وبحماسة.

صوتُ الدِّيكةِ المتلاحق قطعَ عليها نومها. كان النسيم العليل يتدفق عبر نافذة غرفتها التي تركتها مفتوحة بشكل موارب، فلم تغلقها تمامًا، قبل نومها. النسمات الرقيقة بثت في جسدها نشاطًا وارتياحًا. أحست بقصرّة جوع في معدتها. تذكرت أنّ اليوم هو موعد اجتماع الأسرة كلّها في منزل العائلة الجبليّ، وأنها ستتناول وإياهم " المناقيش اللذيذة" التي تعدّها لهم، السيدة "كريمة" كعادتها في كلّ مرّة، يزورون فيها البلدة.

لكن هل ستحضر لها خالتها حين تأتي اليوم، المفاجأة السعيدة التي وعدتها بها؟ منذ أسبوع، أي منذ احتفال العائلة بعيد ميلادها، وخالتها تخبرها أنّ بانتظارها مفاجأة تعدّها لها. فكرت لارا بأنّها قد تحضر لها هاتفًا ذكيًا جديدًا، "آيبادًا" حديثًا، كتبًا لليافعين تحملها معها، وهي تؤكّد لها أنّها حققت أرقامًا قياسية في إقبال القراء عليها، وسوى ذلك من احتمالات لا تعدّ، ولا تحصى.

تحبّ لارا خالتها عُلا كثيرا، وتثقّ بها، وبخياراتها. وهي وإن كانت لا تتفق معها في عشقها للغة الفرنسية، وفي تشجيعها الدائم لها على أهميّة التزام الجديّة في اكتسابها، وفي تعلّمها بطريقة سليمة، إلا أنّها تحترم إخلاصها الشّديد في حبّها لمهنتها، وأدائها العالي فيها. خالتها أستاذة للغة الفرنسية تجيد تعليمها لطلاب الجامعة، ولبعض طلاب الثانويّات كذلك، وتغار عليها مثلما تغار على لغتنا العربيّة الجميلة.

بالمقابل، تنحاز لارا للغة الإنكليزية، وتعتبرها أكثر سيولة وحيويّة، ويسهل عليها في العادة، اكتسابها. فكلّ ما يحيط بها يدعوها إلى التعلّق بهذه اللّغة، والإقبال على إتقانها، نتاج ما يُنشر بها من أفلام وأغانٍ وكتب، وأخبار... لذلك تجد نفسها تنطق بها بطلاقة تامّة، بينما تتعزّر عند نطقها بعض حروف اللّغة الفرنسية. أنّى يكن الأمر، فهي تحبّ خالتها حبّا عميقًا، وتسعد دائمًا برؤيتها، وما سيزيد سعادتها في هذه المرة المفاجأة التي وعدتها بها.

تنبّهت وهي غارقة في أفكارها، بأنّ عليها أن تسرع الخطو حتّى تصل إلى منزل جارتهم، حيث يتمّ إعداد المناقيش التي تعشق مذاقها، على تنوع نكهاتها ومحتوياتها.

يقع منزل تلك السيّدة على مسافة قريبة من منزلهم. وكانت لارا قد غسلت وجهها من بعد استيقاظها، ورتبت شعرها، ولبست ملابس رياضية تمنحها حريّة في الحركة، وانتعلت حذاء رياضيًا خفيّفًا مريحًا لقدميها يسهّل عليها سلوك الطّريق المؤدي إلى ذلك المنزل. لاح لعينيها، وهي تقترب، فناء البيت الرحب. أسرع الخطو لتراقب ذكر البط الذي لاحظته، وهو يتهادى في مشيته مطمئنًا. بدت لها، إلى جواره

هرة بيضاء اللون تقترب منه وتبتعد، تناغيه بين أنٍ وأن. يكرج خلفها، تهرب هي بسرعة، فيهدأ لابتعادها. يستطيبان هذا اللهو المجاني يقطعه ثغاء عنزة قريب. يدخل المشهد السرور إلى قلبها. فتتابع التقدم أكثر.

ثمة خوان عتيق متآكل الجوانب عليه حبات جوز كثيرة، أكواز صنوبر بنية اللون، قليل من المشمش المجفف، ومن الزبيب الأسود اللون . إلى جواره جلس والدها وأمها في انتظار أن تنتهي الست كريمة من إعداد المناقيش. كانت هي أولى الواصلات إلى المكان من بعد وصول والديها إليه، باكراً.

ظهرت لها المرأة سعيدة بمجلسها بين والديها اللذين اعتادتا على زيارتها، في كل مرة يأتيان فيها إلى المكان. ابتسمت لارا للجمع، وقبلت، حين صارت على مقربة منهما، أمها وأباها. حيت بحرارة صاحبة المكان التي استقرت قرب موقد يقوم فوقه، صاج حديديّ حامٍ. رحبت بها كريمة بحرارة خالصة، معلنة استنكارها لقلة زيارتها للمكان، من دون أن تتوقف يداها عن الحركة. فاحتجت هي بانشغالها بدراستها، وبالامتحانات الكثيرة التي تخوضها.

كانت كريمة، أو أم خالد كما تنادياها أمها أحياناً، قد انصرفت إلى معالجة العجين الموضوع أمامها في قدر كبير. تحيله قطعاً متوسطة الحجم، تكورها، من ثم تبدأ بفردها، بمهارة وإتقان، إلى أن تستحيل أرغفة رقيقة دائرية الشكل. توزع بعد ذلك، على أسطحها كميات من الزعتر والزيت، أو الكشك وما يستتبعه من حوائج، أو تضع عليها بتان القورما البلدية، من ثم تقوم بإصاقها على الصاج الحديديّ المحمي، لتنتشر في الأجواء، حين تبدأ تلك المناقيش بالنضج، روائح ذكية شهية تتطاير في كل الاتجاهات. الست أم خالد معروفة في المنطقة بأسرها، بمناقيشها

البلدية المميزة، بحيث يقصدها كل من يأتي إلى البلدة، ليتدوق ما تجود به من أطعمة لذيذة.

إلى جوارهم جلست ابنتها ناهد ذات السبعة عشر ربيعاً. صبية لطيفة وجهها يطفح صحة ونضارة. هي أكبر من لارا بسنة واحدة، لكنّها تفوقها قاماً وامتلاء. تقوم بقطع بعض عروق الهندباء البري. ما زال التراب عالقاً بجذورها بقوة. ترمّ شفيتها وهي تقطع الشروش القاسية، ترميها على صينية وضعتها بعيداً، تضمّ العروق الخضراء الندية، تفرمها قطعاً كبيرة أو متوسطة، تنصرف بعد ذلك، إلى غسلها بالماء جيداً، من ثمّ ترشقها بخقّة إلى إناء متسع يقوم على موقد يجاور موقد والدتها. تقترب بطّة بين الحين والآخر من وعائها، فترمي لها بعض الأوراق. تبتعد تلك بسرعة، وقد تطلق صوتاً محشرجاً من حنجرتها فتفرّ الهرة، وهي تنظرها بحذر. تخاف من انقلاب مزاجها المفاجئ، ومن إقدامها على مهاجمتها بدون سابق إنذار.

نمط من الحياة مغاير لما تحياه لارا وأسرتها في المدينة. يجتذبها في أحيان كثيرة، وتنبثق من روائحه، ومن مشاهدِه فتنةً طاغية تسحرها.

- ستحضّر لكم ناهد الهندباء البرية على الغداء، أمّا ما تبقى، فتحضيره عليّ. ستدوق من يديها طبقاً لم تحلم به ابداً يا أبا ربيع. أعرف أنا كم تحبّ أكل الهندباء.

- تسلّم يداك، ويذا ناهد يا أم خالد، ما شاء الله صارت ابنتك عروساً جميلة فعلاً.

تحمّر الفتاة خجلاً، ولا تجيب. تزداد حركة يديها سرعة وحيوية. تنتبه لارا إلى أنّ المرأة تنادي والدها بأبي ربيع، علماً أنّها ابنته الوحيدة، ولم ينبج صبياً في حياته بعد، فلا يعترض. تبتمس في داخلها. ربّما يرضي ذلك بعض غروره، فيتواطؤ بصمته مع المرأة، على منحها له تلك التسمية، وتثبيتها استبشاراً بها.

تفترش الشمسُ السقيفة المغطاة فقط، بجذوع الملول الثّخينة. نسيمٌ لطيف يعبر المكان، يحرك خصلات شعر أمّها البني اللون. خالطه شيبٌ في الآونة الأخيرة. يحاول والدها استئثارها، فيقول متضحكاً، وهو يشير إلى خصلات من شعرها استحالت فضية اللون:

- انظري يا أم خالد، لقد كبرت صاحبك، نساء المدينة يعتبرن الشّيب فضيحة أعمارهنّ، فيغطينه طوال الوقت، ويُسارعن الى تلوينه، أمّا امرأتي فتفضل إبقاءه على حاله، أراها منحازة لكنّ في ذلك.

تجيبه المرأة بسرعة، وبتصميم:

- سيّدة زكية كزوجها

يبتمس لها مغتبطاً بإجابتها وبحكمتها. والدتها تبتمس هي الأخرى بنعومة. أمورٌ كثيرة لا تجيب أمّها عنها، ولا تشارك في مناقشتها. يبقى وجهها دائم الابتسام تقريباً، حتى ولو كانت تؤنّب أحدهم، أو تبدي استياءها من أمر ما. مستكينة إلى وجود زوجها الثّابت إلى جوارها، ما يزرع ثقة عارمة في نفسها.

في عينيها تنام طيبة منذ زمن، تغري كلّ من رآها بالاطمئنان إليها. عاشت معه حياةً صافية هادئة حتى عندما كافحت في أيّامها السّالفة إلى جواره، مشاركة إيّاه مشقّة العمل في المتجر، وفي البيت. وحين بدأت الأموال تتدفّق في بيتها،

حفظت نعمتها، فلم تبذر يوماً، ولم تعرف المبالغات. سكنها دائماً شعور واثق بأن الحياة لا تحمل لها إلا الخير، وقد يصحّ القول إنّ هذه الطمأنينة هي ما جذب زوجها إليها. القهر الحقيقي الذي عرفته في حياتها معه، تمثل في الضرر الذي لحق بساقها، في إحدى حفلات الزفاف التي حضراها، حيث أصيبت بطلقة رصاص طائش تسببت بشلل مستديم لعصب تلك الساق، ما أفسد عليها نشاطها، وخفة حركتها التي كانت تعرف عنها.

تعاود لارا مراقبة ناهد، وقد أنهت تقطيع عروق الهمدباء، فصارت جميعها في القدر الذي تغلي مياهه بما فيها، فتنبعث موجات من البخار من جوفه، تتعالى بحرية، وبخفة متشكلة دوائر وحلقات. تنهض الصبية من المكان الذي كانت تستقر فيه. تجر الكرسي الخشبي الوطيء، تعاود الجلوس عليه، لكنها تبسط بين ساقها كومة من الحشائش هذه المرة، كانت تضعها إلى جانبها الأيسر، وتروح تطعم ذكر البط بيدها. تجعل العشب الأخضر لفائف، تضمها جيداً بين أصابعها، من ثم تلقمه إياها بعناية، كأنما هي تطعم طفلاً صغيراً. يلتقطها ذاك الأخير بفمه الكبير، يروح يكرج بعد ذاك بعيداً مختالاً، في أنحاء المكان.

يعاود مطر نيساني جميل تساقطه. ينساب ضاحاً بأبهة، وهو يضرب أوراق اللزاب المعمرة عند مدخل الحديقة، من ثم يهوي على الأرض. تساقط لدقائق معدودة، ليتوقف بعد ذلك فجأة، كما بدأ. ضحكت أم خالد ضحكة قصيرة، من ثم زمت شفيتها، وهي ترى لارا تحاول مجانية قطرات المطر، لتقول لها بصوت مرتفع محشرج:

- لا تخافي يا ابنتي، "شّتي نيسان بيحي الإنسان"، وقدومكم لعندنا خير انشالله، وهذه بشائره، ألا ترين كلّ الفراشات التي تتطاير من حولنا؟

خجلت لارا قليلا من غفلتها تلك، وهزّت رأسها موافقة السيدة الطيبة على مقالتها. فهي تشعر في أعماقها بدبيب خير حقيقي، وهي تعاین هذا الطقس المنعش الذي تعشقه، والذي يشعرها أحيانا بسخافة النمط الاستهلاكي الذي تحياه في المدينة، هي وبعض زميلاتها حيث يقضين الكثير من أوقات الفراغ التي تتاح لهنّ، بالتّنقل ما بين محال الثياب، والعمّور، وصالونات تزيين الشّعور، وما إلى ذلك من أفعال تعمل على تحسين الخارج، لتترك الدّاخل يزوي ويتعفنّ.

فعلت حسنا، إذ عاودت الاهتمام بالمطالعة في هذه الأيام، حيث اكتشفت في داخلها ميلا حقيقيا للقراءة ولمطالعة الكتب الجيدة. لا شك أنّ توجيهات خالتها، ومكتبة والدها الغنية بما فيها من كتب متنوعة قد شكلتا عنصر جذب حقيقي لها. والأمر المؤكّد الآن هو أنّ هذه الإجازة ستزودها بمخزون هائل من المشاهد التي ستترك أثرها، على خيالاتها لاحقا، لذلك ستفكرّ جديا بدعوة رفيقاتها للتعرف على هذه المنطقة الجبلية الرائعة، في الإجازة المقبلة. أسعدتها الفكرة، فسارعت إلى مسائلة والدتها:

- أمي هل لديك مشكلة في دعوة أصدقائي ليتعرفوا على هذه المنطقة، في زيارتنا المقبلة؟

- أهلا وسهلا بك يا حبيبتي، وبكل أصدقائك الذين تثقين بهم، وبحسن سلوكياتهم.

تلمح لارا طائرين يتناغشان، على أوراق الشجر، ينقر أحدهما حبة ماء بلورية علقّت على طرف ورقة، يلاحقه الآخر ليستقي مثله، فيطير الأول، ويلحق به الثاني. يحلقان من ثم يعاودان الاختباء بين الأغصان الكثيفة، يتوقفان وبعدها ينطلقان.

تنظر اليهما بمودة. كلّ مخلوقات الأرض لها أفراحها الخاصة بها على ما يبدو. تقول ذلك في ذاتها، وبصرها يتابع العصفورين المتسابقين.

كانت أم خالد قد أنهت خبز كلّ المناقيش، فرصّتها في الطّبق الكبير. بدأت تتحضر لتلتحق هي وابنتها بالوالدين اللّذين انطلقا يسيران الآن أمامهما، وقد أسرع والدها ليعين زوجته ويمسك بذراعها. تخلّفت لارا عنهم قليلا متلهية بالنّظر إلى ما حولها، من ثمّ أسرعت الخطو كي تشارك هي الأخرى في إعانة والدتها، على تخطي بعض الأعشاب المتعالية في الطريق.

عندما وصلوا إلى حيث جُعلت الطاولة الخشبية الكبيرة، وقف الجميع لتحيّتهم. كان أعمامهم وأخوالها، أولادهم، وزوجاتهم قد حضروا إلى المكان. راح الجميع يتبادلون التحايا والقبلات، والانشرح بادٍ على الوجوه.

تمّ الانتهاء من تجهيز المائدة، والكلّ يشعر بالفرح وبالانتعاش. أضيفت إلى جوار طبق المناقيش على تنوعها، أطباق البيض البلدي المقلي، لبنة الماعز الشهية، الزيتون البلدي المخلل، بالإضافة إلى الخضر الطازجة النديّة. بدأ بعض الرجال يتناولون لقيمات سريعة، في حين كانت أمّها تستمهلهم، لأنّ أختها غلا كما أخبرتها عبر الهاتف، تحتاج خمس دقائق فقط، حتّى تنضم إليهم. وهذا ما وقع فعلا، فبعد قليل وصلت خالتها غلا، وبصحبتها امرأة مشوقة القامة شقراء الشعر قدّمتها لهم، على أنها صديقتها الفرنسية، وأستاذة تلك اللّغة في مدينة مونبلييه، الدكتورة كارولين. توقفت خالتها عن الكلام قليلا، من ثمّ تراجعت إلى الخلف، لتفتح باب المقعد الخلفي من السيارة، وهي تعلن بصوت هاديء مرحّب:

- وهذه ابنتها الجميلة كريستين التي شرفتنا اليوم بزيارتها. أكملت بعد ذلك موصّحة، لقد قدمت كارولين لقضاء إجازة سريعة عندنا، نستمتع بصحبتها، وتتيح في نفس الوقت الفرصة لابنتها لتعلّم أولى لبضعة مفردات من لغتنا، مستغلّتين جمال فصل الربيع في بلادنا، في سبيل تحقيق هذه الغاية.

أعلنت ذلك، من ثم التفت إلى لارا موصّحة:

- أتمنى أن تكون مفاجأتي هذه قد أعجبتك.

أجابت لارا بارتباك:

- أحلى وألطف مفاجأة، شكراً لك يا خالتي الجميلة.

بدأت السعادة على وجوه الحاضرين، وهم يتناولون كلّ تلك الأطعمة اللذيذة، وقد راحوا يشيدون بجودتها العالية وبمذاقها الفريد، شاكرين لأم خالد فضلها وعظيم صنيعها، ولمضيفهم الكريم تطّفه بالدعوة، وبحسن الاستقبال. وكانت المرأة الجالسة إلى طرف الطاولة مشاركة إياهم طعامهم، تبدي خجلها من حين إلى آخر، ولا تجيب بغير التمتمة والنهوض السريع لإحضار بعض الصحون، مكررة عبارات الترحيب بالضيوف الذين أناروا بلدتها، كما أعلنت أكثر من مرّة.

لم تكد تمضي ساعات حتّى شعرت لارا بتفاهم وانسجام بينها وبين كريستين، حيث راحتا تتبادلان أطراف أحاديث شتى بلغة متعثرة. كانت كريستين تتحدث الفرنسية بسرعة وطلاقة، وذاك كان حال لارا مع اللغتين العربية والانكليزية، على معرفتها الضئيلة ببعض مفردات اللغة الفرنسية، هكذا تمّ التفاهم بينهما، وحين يحدث سوء استيعاب لبعض ما يقال، تغرق الفتاتان في ضحك صافٍ، يُسمع معه الكثير من الأصوات، والألفاظ الغريبة.

انقضت ساعات النهار بسرعة هائلة، وأنفق الجميع وقته سعيدًا ومنشرحًا، وهو يتطلع إلى تكرار مثل هذه الزيارة مرات أخرى كثيرة. أمّا لارا وكريستين فقد اتفقتا على حتمية الالتقاء ثانية، من خلال تطبيق زووم، حيث سيتبادلان المعلومات، وستسعى كلّ منهما إلى تعلّم لغة الأخرى، وقد يستعينان بالخالة علا، وبكارولين الوالدة إذا استدعى الأمر ذلك، وربما تتبادلان الزيارة لاحقًا، لم لا؟ فقد تزورها لارا مع خالتها في فرنسا، وقد تكرر كريستين وأمّها زيارتهما إلى لبنان مرة أخرى.

وقفت الأسرة مساءً، تودّع ضيوفها تباغًا. وحين سلّمت لارا على كريستين، شعرت بالامتنان الحقيقي لخالتها، على هذه المفاجأة اللطيفة، وتنبهت إلى أنّ التّعرف إلى بعض البشر قد يكون أكثر أهمية في الحياة، بل أثنى من كلّ الهدايا الماديّة مهما ارتفعت قيمتها. اقتربت منها خالتها علا مودّعة إياها، فضمّتها لارا بحبّ، وهمست في أذنها وهي تقبل خدّها:

- شكرًا لك يا خالتي الجميلة على هذه المفاجأة السعيدة التي لم تخطر على بالي لحظة. أنت تجيدين إعداد المفاجآت القيّمة فعلا. من قلبي، أقول لك مجددًا شكرًا.



جلس الفتى "شبل" على كومة حجارة في منتصف الطريق. انطلق صوته منادياً بفتور: "تعال اشرب أطيب كأسة شاي". كان المارون يعبرون بسرعة، وكأن أحداً ما يلاحظهم. يتطلع شبل باستكانة إلى كل الخراب الذي اكتسح المكان. ينتظر بيأس زبوناً يسقيه كوباً من الشاي. أخوته الصغار جائعون. تأمل بأسى الأسقف التي كانت عالية. كلها انهارت، وصارت شبه ملتصقة بأرضيات المباني المهتمة. قضبان الحديد نفرت بقسوة، من أكوام الركام، وبرزت ملطخة بالدماء، وبالغبار. رأى ملابس ممزقة تنتشر في أنحاء المكان، ف شعر بصدرة يضيق للحظات. نظر من جديد ناحية اليمين، حيث أمضى سنوات عمره القليلة السابقات. معالم دكان أبيه قد غامت تماماً. بقي منها فقط كلمات مسح عنها الغبار مراراً وتكراراً، حتى يتمكن العابرون من قراءتها "مقهى اسماعيل الغزي". صمت قاس يلسع أذنيه، أين اختفت كل الأصوات المنادية التي كانت تطالبه سابقاً، بشاي أبيه اللذيذ؟ وكيف كان هو يستطيع أن يلبي بجسده الصغير، كل تلك النداءات تتالي على مسامعه، في الأمسيات التي تضح بالزبائن، وبجميل الكلام؟ استراح إلى أفكاره تلك مستأنساً بذكريات الماضي القريب. لكن لم لا يشتري أحدٌ منه الآن الشاي؟ أخوته الصغار جائعون. فجأة لمح وجه أبيه يبتسم له، رآه

من بين موجات الغبار التي تثيرها أقدام العابرين، بل شعر بيده تربّت على كتفيه
بحنو غريب. أحسّ بماء حارّ ينساب بحرقّة على خدّه المتسخ. لا ماء يغتسل به
منذ أيام، وربّما منذ أسابيع. تابعت اليد حركتها الموسمية له، فشعر بفزع مباغت.
رفع رأسه إلى الأعلى. كان رجلٌ لطيف يربّت على كتفه بأناة، وبهدوء. أحسّ به
قريبًا كأب، فسمح لدموعه بأن تنساب بحريّة. سأله الرجل بتودّد، وباستغراب: "
ماذا تفعل يا ولدي وسط هذه الخرائب؟"

أجابه الفتى، وقد التمعت نظرةً كبرياء في عينيه: "أحرسُ الدكان حتّى يعودَ أبي،
وأبيعُ الشايّ عسايّ أطعمُ أخوتي الصّغار، هل تريد يا سيّدي، كاسةً من شايّ أبي
اللذيذ؟"

3- قصة: نحن أصحاب البيت



شُوهد أسعد بعد قليل من إعلانه عن موت أبيه الشيخ صابر، يرقص هو وزوجته الهادئة الرزينة وفتاه طارق، على سطح بيتهم المتهاك، ويلوحون بقطع في أيديهم، لم يُعرف إن كانت أوراقًا، أو خرقًا من القماش.

حدث ذلك في صباح نهار مشمس، على سطح البيت العريق الذي حوِّله الغرباء مع الأيام، إلى ما يشبه نزلًا قرويًا فوضويًا، يعلو الصراخ في أنحاءه، إذ يتسابق فتيانهم في حدائقه وقد خلت من زهورها، وتمّ بفضلمهم تعرية أشجارها، وتهشيم أغصانها، يتقاذفون في حناياها الحجارة والشّتائم، وأحيانًا الأحذية، من بعد أن توزّعت في غرفه السبع المتداعية، أسرّ وفدت كلّ واحدة منها إليه، في إثر اعتداءات تعرّضت لها إحدى البلدات التي تقوم على حدود البلاد.

عُرف الشيخ صابر بوطنيته وكرمه وسعة صدره، فكان يستقبل بشهامية العائلة تلو الأخرى، تقيم الواحدة منها في غرفة من غرف منزله الذي ورثه أبا عن جدّ، حلًا منه لأزمة طارئة. توالى عمليات اللّجوء إلى منزله حتّى ضجّت غرفه بالوافدين الغرباء، وانحشر الشيخ وابنه الوحيد وحفيده وزوجتيهما في الغرفة الثامنة من غرف المنزل. تمثّل الامتياز الوحيد فيها، في استخدامهم وحدهم حمامها الخاص الكبير الذي يقوم في ناحية منها، بينما اشتركت سائر الأسر بما

ضمته من رجال ونساء وأطفال ازدادت أعدادهم بوتيرة لا تهدأ، في استخدام حمامين آخرين كانا في المنزل.

وكحال البشر عامة، كان الوافدون يتصرفون في بداية الإقامة، بمنتهى الكياسة واللطافة التي انقلبت بعد حين من الزمن إلى خشونة وثقة، ومطالبة بحقوق مفترضة، واشتراطٍ على مقاسمة الآخرين في أمور شتى: كأحقيّة استخدام المطبخ في أوقات معينة، واستغلال زوايا محدّدة من الحديقة، والتوفّر مسبقاً على كمّيات المياه التي يُسمح لكلّ فرد باستخدامها، وما إلى ذلك من تفاصيل كانت تنتهي في غالب الأحيان إلى نشوب معارك ضارّة يفشل الشيخ، أو زوجته المسالمة في فضّها، وينتهي منها الرجل مهزوماً ملوماً من قبل زوجته، مستجدياً دونما جدوى ضيوفه الرّحيل، ومختصماً كذلك مع وحيدِه حول المصير الملتبس الذي ألزمهم به، نتاج سوء تقديره لنوايا الآخرين، ولدوافعهم الكامنة.

وقد حدث يوماً أن دار هرجٌ ومرج في أنحاء البيت، من بعد انقطاع المياه عن أحد الحمامين الآخرين، فاقترحت إحدى النساء الوافدات استخدام الحمام الكبير العائد إلى أسرة الشيخ. رفضت الأمّ الكبيرة الأمر بغضب واستياء، واستنفرت الكنة الهادئة، ف وقعت مشادة هائلة اشترك فيها كلّ كبير وصغير في المنزل، وتطايرت عبارات حامية تتساءل عن ملكيّة البيت الكبير، وعن هويّة مالكه الحقيقي، وعن ضرورة البحث في هذه القضية الحساسة، وحثمية استدعاء رجال الأمن لفضّ هذا الجدل الخطير.

أُظفئت المعركة على جمرٍ كمنَ في النفوس، وعلى هزيمةٍ منكرةٍ للشيخ
انتهت به مكتئبًا غارقًا في حالة من الذّهل والصّمت المؤلم. شوهد الرّجل ليلاً،
وقد التّف على ذاته مكومًا تحت عباءته البالية، يرتجف من حمى مفاجئة أصابته،
رافضًا أيّة محاولة لإطعامه شيئًا يقيه مزيدا من اعتلالِ جسده النّحيل، عازفًا حتّى
عن الكلام مع حفيده الذي يحبه أكثر من عينيه.

علا صياح الديك عند الصّباح، وقامت الشّيخة تسعى إلى أداء الصّلاة،
فلاحظت أنّ شيخها مازال مكومًا في فراشه، بغير حراك. اقتربت منه وجست جبينه
الأصفر اللّون، فهالتها برودته وعدم استجابته لحنان كفّها الجائل بخوف. وحين
حرّكه وحيده والدموع تنهمر من عينيه، انفلتت من تحت العباءة حقيبةً جلديةً بالية
محكمة الإقفال، فوجئ عند فتحها بظهور أوراق كثيرة مصفرة نال بعض أطرافها
سواد. فتحها باضطراب، فقرأ اسم والده في مواضع كثيرة منها، وتابع أرقامًا
وإشارات وخطوطًا مستقيمة وأخرى متعرجة. كانت الأوراق عبارة عن صكّ ملكية
الأب للبيت العريق.

أمسكها صابر بيمناه وقد سكنه قهزٌ ولوعة، أيقظ ابنه الحبيب وطلب منه
أ، يسير أمامه، وشدّ زوجته بيسراه دافعًا إيّاها إلى مرافقته إلى سطح البيت.
هناك نادى في النّاس مُخبرًا بموت الشّيخ النّبيل، من ثمّ راح يصرخ ملوحًا بالأوراق
بصوت مبتهج ذبيح: نحن أصحابُ البيتِ يا ناس، نحنُ وحدنا أصحابُ هذا البيت
الأصيل.



5: قصة: لن يضيع جميلٌ أبدًا...

أستاذتنا الجامعية لهذا الفصل إنسانة لطيفة راقية، تحب العلم والتعليم، وتمارس هذه المهنة بشغف حقيقي. هذه هي الأخبار التي تسقطناها عنها، نحن الطلبة الجدد، من زملائنا الذين سبقونا.

عندما دخلت إلى القاعة لأول مرة، وقفت إلى المنبر قائلة لنا، ووجهها يشع:

- صباح الخير، وكلّ عام وأنتم بأفضل حال. هذا هو يومكم الدراسي الأول، وأنا سعيدة لأنني سأكون معكم مواكبةً لكم فيه، متمنية أن تنهوا هذا الفصل وكلّ فصل دراسي بنجاح، وإذا كان أيّ واحد منكم، لا يستطيع ابتياع كتابي المقرر لكم، بسبب ظروف قاسية يمرّ بها، فأرجو أن يبلغني ذلك من خلال ورقة، يتركها في مكتبي، حتى يتم إعفاؤه من شرائه، وتأمينه له لاحقًا.

ردّ أحد الطلاب بصوت مرتفع:

- لكنّ أساتذة آخرين قالوا لنا إنّ عدم شراء الكتب المقررة تعني رسوبنا حتماً.
- ليس لي شأن بكلام الآخرين، أنا أتحدث عن كتابي فقط.
- سيقول لك كلّ الطلاب إذاً إنّهم عاجزون عن الشراء. نحن لا نفهم تصرفك هذا يا أستاذة، ونخاف أن يكون فخاً تُعدينه لنا.
- علق الشّاب ضاحكاً، ونظر إلى الآخرين الذين ساورتهم بعض الشكوك فجأة.
- قطعاً أنا لا أفعل ذلك، ولا يمكن أن يخطر في بالي مثل هذا الأمر أبداً، وأتمنى منكم أن تسمعوا هذه الحكاية حتّى تطمئن قلوبكم، وتفهموا ما أطلبه منكم، بشكل صحيح.

منذ تسع وعشرين سنة كانت صبيّة في عمر مثل أعماركم الآن، تجلس على مقعد يشبه مقاعدكم التي تستقرون في هذه السّاعة، عليها. كانت الابنة الوحيدة لوالد طيّب محبّ يعمل سائق سيارة أجرة، ويقوم على رعاية ابنته في اللّيل، وفي النّهار من بعد أن ماتت زوجته بمرض خبيث، عجز الطّب عن شفائه. ربّما لذلك، قررت تلك الابنة الالتحاق بكلية الطب، عساها تتمكّن من إنقاذ الأمّهات الحنونات، حتّى لا يتركن بناتهنّ الصّغيرات، وهنّ بحاجة إليهن.

أوصل السائق، واسمه كمال الصّافي ابنته نادية إلى الجامعة، في اليوم الثالث من أيّام الفصل الأوّل، من السنّة الدّراسية الأولى، وهو مهموم مرتبك، فقد أخبرته ابنته عند الصّباح الباكر، وذكّرتة بالأمر مجدّداً، وهي

تترك مقعدها مغادرةً السيّارة، بأنّها تريد في اليوم التالي، مبلغ خمسمائة ألف ليرة، تشتري به كتابين دراسيين، ومعطفًا أبيض ترتديه حين تدخل وزملاءها للعمل، في المختبر.

لذلك أمضى السائق نهاره، وهو ينقل الركاب من العاصمة التي يقيم وابنته في حي فقير من أحيائها، إلى سائر المدن القريبة. لم يتوقف الرجل لحظة عن حمل الركاب وإيصالهم إلى مقاصدهم، حتّى بلغت الساعة العاشرة ليلاً.

حين نزل الزبون الأخير من السيّارة، نقدّه أجره شاكرًا إيّاه، وابتعد. عنّ للسائق كمال أن يعدّ ما جمعه من مال، في نهاره الشاق، فوجد أنه قد تمكّن من جمع مبلغ ثلاثمائة ألف ليرة فقط، وهو المبلغ المتبقي، لأنه اضطر إلى تعبئة خزان البنزين مرتين متتاليتين. فكّر أن يستأنف العمل، إلاّ أنّه شعر بالتعب الشديد، وابنته قد تقلق عليه، لذلك قرّر أن يعود إلى المنزل، مفوضًا أمره لربّ رؤوف رحيم يُحسن تدبير أمور العباد.

في طريق العودة، لاح له شبح إنسان منتصب، من بعيد. رفع أضواء سيارته العتيقة، وهو يقترب منه، فبدأ الواقف إنسانًا مهيبًا طويل القامة مرتبّ الشعر، واثق النظرات. وكان يرتدي معطفًا طويلًا، ويضع وشاحًا أبيضًا يزيدُه هيبة ووقارًا. أوّماً له فتوقف السائق بمحاذاته تمامًا. انحنى الرجل، وسأله بتلطفٍ إن كان يقبل أن يوصله إلى منزله في الشارع الفلاني، من شوارع العاصمة. فكّر كمال بداية بتصميمه التوقف عن العمل، لكنه ما لبث أن تراجع، وقال للرجل بتهذيب:

- تفضل، على رأسي، أنت تأمر.
- يبدو عليك أنك إنسان نبيل، فشكرا لك. وهزّ رأسه مكملا حديثه، كم أنّ هذه الدنيا حافلة بالمتناقضات!
- عن أية متناقضات تتحدّث يا سيدي؟
- عن تناقضات أحداث الحياة، فقبل ساعة فقط حصل معي حادث جعلني أوّمن بأنّ الشرّ صار يحكم البشر، وها أنت الآن تنفي هذا الحكم، وتثبت نقيضه.
- ماذا حدث أيها السيد، هل يمكن لك أن تخبرني؟
- أنا حتّى الآن لا أصدق ما حدث، وكيف وقع الأمر بسبب السرعة التي تمّ بها. رنّ جرس هاتفى المحمول حين كنت أقود سيارتي عائداً من زيارة صديق لي، يقيم في منطقة قريبة من هنا. أنا لا أتحدث عبر الهاتف عندما أكون في حالة سؤق، وأتحمّل مسؤولية القيادة وحدي. ركنت السيارة إلى جانب الطريق، ونظرت إلى شاشة المحمول فوجدت رقم المنزل. باشرت بطلب الرقم، فإذا بمسدس يُوجّه إليّ من نافذة السيارة، طالباً مني إقفال الهاتف، والهبوط سريعا من سيارتي. حاولت الاعتراض طبعاً، لكن صاحب المسدس المغطّى الوجه ضغط على الزناد، وجأر بقوة، ومدّ يده إلى كتفي متطاولاً، فخفت وانصعت إلى تنفيذ أمره، وأنا في حال من الصدمة.
- ومنذ ساعة، وأنا واقف في هذه الناحية من البلاد، بلا سيارة، بلا هاتف، ولا مارّ يقلّني من هذه المنطقة التي بدت لي في الظلمة، وكأنها

منقطعة عن البشر، حتى قدمت أنت، فسبحان الله على أطفاف تدابيريه، وعلى ما يقدره من أمر، حين يقول له كن فيكون.

- تبارك الله أرحم الراحمين، لا يمكن للدنيا أن تخلو يا سيدي من الخير، وإلا فني البشر، وانتهت الحياة.

- صدقت، والصدق يلزمني كذلك أن أخبرك أن ذلك اللص قد سلبني سيارتي، وهاتفي ومالي كذلك، ولذلك أنا لا أملك الآن ثمن أجرة توصيلتك هذه. ضحك كمال بطيبة حتى بانث أسنانه، وردّ بفرح طفولي:

- الحمد لله مجدداً. أنت أخبرتني قصة السرقة، وأنا أخبرك بالمقابل بقصة الوعد الذي قطعه على نفسي، يوم اشتريت سيارتي بالمال الذي ادخرته من جهدي، وبمال قطعتي ذهب كانتا لزوجتي، باعتها حتى نستكمل تسديد ثمنها. وقد اتفقنا في ذلك اليوم، أن يكون نقل الراكب الأخير من كل يوم عمل، مجانياً حتى يبارك الله لنا بماننا وبابنتنا، وأنت هو ذاك الراكب لهذا النهار.

- ومع ذلك فأنا مصرّ أن ترافقني حين نصل إلى شقتي، حتى أنقذك أجرك. هزّ كمال رأسه بهدوء، وهو ينوي مسبقاً رفض المبلغ الذي سيعرضه عليه الرجل، مهما كانت قيمته.

توقفت السيارة أمام البناية الأنيقة التي أشار إليها السيد، فترجّل منها، وطلب من كمال أن ينتظره، فهو لن يتأخر. أطفأ كمال محرك سيارته، وقرّر

الانتظار احترامًا لإرادة هذا الرجل الذي بدا له محترمًا موثوقًا. وما هي إلا دقائق حتى شاهده يخرج من المدخل العريض مهرولاً، وهو يشير إليه ليتبعه بسرعة.

خاف في البداية، وتوجّس من هذه الحركة فتردد للحظات، إلا أنّ نخوته غلبته. دخل مسرعًا فوجد في المصعد المفتوح امرأة متداعية شاحبة، وابنة شابة تقف إلى جوارها ممسكة بها، والرجل يعمل بجهد على إخراج السيدة . كانت زوجة الرجل مصابة بجلطة، والابنة حاولت كثيرا الاتصال بأبيها، لكن من دون جدوى، لذلك عليه أن يسرع معه بها الآن إلى المستشفى مستكملاً معروفه معه. فعل كمال المطلوب منه عن طيب خاطر، ولم يغادر المشفى حتى اطمأن إلى استقرار حال المرأة، وإلى هدأة السيد النبيل.

كانت الساعة قد بلغت الواحدة من بعد منتصف الليل، حين عاد إلى منزله، فوجد ابنته نادية ما زالت تنتظره بقلق وخوف. قبل جبينها، وأخبرها بالحادثة تفصيلاً، وبأنها ستصطحبه غدًا إلى المستشفى، ليزورًا معًا المرأة المصابة، ويطمئنًا عليها، وأضاف بأنّ الرجل قد أصر أن يعرف اسمه، وأن يتعرّف على ابنته، أي أنت، أوضح لها، وسأل عنك، وعن أحوال دراستك، بل إنه أخذ مني وعدا بأن نزوره نحن الاثنين لاحقًا في بيته، فما رأيك يا ابنتي؟

- حاضر يا أبي، إن شاء الله نفع، لكن عدني ألا تتأخر في العودة من عملك، بعد اليوم أبدًا.

نامت نادية قلقة مهمومة لخوفها على أبيها من ناحية، ولخوفها من إدارة الجامعة، من ناحية أخرى. فوالدها سلّمها من بعد أن قبلها مبلغ ثلاثماية ألف فقط، فهل ستخرجها الإدارة أمام زملائها وترفض المبلغ لنقصانه؟

في صباح اليوم التالي، وبينما كانت تصغي بانتباه كليّ إلى شرح الأستاذ في خلال المحاضرة، دخل الناظر العام، وذكر اسمها بصوت مرتفع، فرفعت يدها، وقلبها يرتجف من الخوف. طلب منها أن تتبعه. لحقت بالرجل وهي مضطربة. سارا في عدد من الممرات، لمحت طلابًا كثيرًا، ورأت قاعات كثيرة، وهي تعبر أمامها، فازداد قلقها من احتمال أي توبيخ قد يلحق بها أمام مثل هؤلاء، لأنها لم تسدد المبلغ المطلوب منها بعد، وهي كانت تنوي أن تفعل في الاستراحة الأولى.

- حسنا فليحدث ما يحدث؟ لن أهتمّ ما دمت غير مذنبه في شيء. قالت في دخيلتها.

توقف الناظر أمام باب خشبي عريض، كتب على شارة نحاسية ملصقة عليه اسم عميد كلية الصّحة التي التحقت هي بها. دخلا، فتقدمت هي من مكتب وقف رجل مبتسم خلفه، وهي ما زالت على استغرابها، في حين انصرف الناظر بهدوء وتهذيب من بعد إلقاءه التحية. رحّب بها العميد ببشاشة وانسراح، من ثم سألها عن اسمها، حين ذكرته ازداد انسراحه، وترحيبه بها، واستفسر عن اسم أبيها، هل هو كمال الصّافي؟ فأكدت الأمر مستغرّبة.

أشاد العميد بشهامة أبيها، مبينا لها أنه كان السبب في إنقاذه من ورطته التي وجد نفسه فيها مساء البارحة، وفي إنقاذ حياة زوجته التي شارفت على الموت، لولا نخوته ومروءته. دمعت عيناها، وهي تصغي إلى عميد الكلية يشكرها من قلبه، ويقدم لها الكتابين المطلوبين، إضافة إلى كيس ورقي أنيق قال إن فيه ثوبين أبيضين للمختبر، وأنه من الآن وصاعدًا سيكون في منزلة أبيها، وهي ستكون منه، في منزلة ابنته رانيا. خرجت نادية من مكتب العميد مذهولةً من المفاجأة اللطيفة، وهي تشعر أنها تسبح في سعادتها الغامرة.

هذه الفتاة يا أصدقائي هي نفسها الأستاذة التي تقف أمامكم اليوم، والتي تريد من المتعثر ماديًا منكم، ألا يحمل همّ ثمن الكتاب، وألا تكون هذه المسألة معوّقًا له يقلقه في مساره التّلمعيّ، وهذا سرّ عرضي الصّادق لكم في بداية محاضرتنا هذه، فإياكم أن تقلقوا أو تفقدوا النّقة يومًا بالآخرين.

الدكتورة هدى عيد

أستاذة نقد أدبيّ وروائيّة لبنانيّة. من مواليد العام 1965، في قرية الوردانيّة - محافظة جبل لبنان. أستاذة مادّة اللّغة والأدب لصفوف المرحلتين المتوسّطة والثّانويّة، في ثانويّة رفيق الحريري/ صيدا من 1989 وحتى العام 2021، ومنسّقة دائرة اللّغة العربيّة فيها لعدد من السّنوات (الحلقة الأخيرة). حائزة شهادة الدّكتوراة في النّقد الأدبيّ الحديث منذ العام 2020. وقد وصلت روايتها " حبيبتى مريم" التي تناولت فيها مأساة انفجار مرفأ بيروت، إلى القائمة القصيرة لجائزة كتارا للرواية العربيّة، الدّورة 2023، واحتلّت رواية " امرأة لا تنام" المرتبة الأولى من جائزة اتّحاد الكتاب اللّبنانيّين العام 2025.

صدر للمؤلّفة:

أ- الرّوايات:

- "في بلاد الدّخان"، بيروت، دار الفارابي، ط1 2001 / ط2 2011
- "الحياة في الزّمن الضّائع"، بيروت، دار الفارابي، 2006
- "رُكام"، بيروت، دار الفارابي، 2009
- "نوّارة"، بيروت، دار الفارابي، 2011
- "حياة أخرى"، بيروت، دار الفارابي، 2012
- "حبّ في زمن الغفلة"، بيروت، دار الفارابي، 2013
- "سلطان وبغايا"، بيروت، دار الفارابي، 2016
- "مُتعة العمر"، بيروت، دار الفارابي، 2018

- " حبيبتى مريم"، بيروت، دار الفارابى، 2022، (القائمة القصيرة لجائزة كتارا للرواية العربية - الدورة 2023)
- امرأة لا تنام: قيد الطبع
- ب- قصص لليافعين:
- " تانيا"، بيروت، دار الفكر اللبناني، 2016
- " سرّ الكلب الذي اختفى"، صيدا، المكتبة العصرية، 2018
- " الحصان الأبيض وقصص أخرى"، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2021